القصص الدّينيّ في شعر سيدي لخضر بن خلوف

د. محمّد كمال بلخوان
جامعة مستغانم

لقد كان للقصص الدّينيّ عامّة والقصص القرآنيّ خاصّة أثر في توجيه الفكر الأخلاقيّ والاجتماعيّ في حياة الأمّة؛ إذ أضحى عُصارة عنصر من عناصر التّوجيه الأخلاقيّ، وضرب الأمثال ومسلك من مسالك العِبر، فلذلك تفرّعت مذاهبه وتعدّدت في النّصّ القرآنيّ، كما تنوّعت وسائله واختلفت من سياق إلى آخر. فنجد القرآن الكريم يستحضر الطّير ليصوّر المشاهد القصصيّة مثل: حضور الغراب في قصّة هابيل وقابيل لقوله تعالى: ((**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**))[1] إذ حضور الغراب في هذا المشهد القرآنيّ يحيل إلى الإرشاد والتّوجيه في دفن الأخ.

***-حضور الحمامة في المشهد الدّينيّ:** وإذ كان النّصّ القرآنيّ يوظّف الطّير لتصوير هذه المشاهد، فإنّنا نجده يلوّح في أفق قصص الأنبياء، ليرسم بريشة الخالق مظهرا من مظاهر القدرة الإلهيّة، ويتجلّى حضوره في القصص القرآنيّ عامّة والحمامة خاصّة فيما يلي:

1- حضور الحمامة بجانب غار حراء تمويها لقريش ومساندة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

قال عليك السّلام يا نبيّ الأبرار هذا الحمام خالقي به اعتقني

2- حضورها مع سيدنا سليمان عليه السّلام عندما أعطاها الرّسالة؛ فخانت الأمانة واطّلعت عليها.

3- قصّة موسى عليه السّلام مع الحمامة والباز؛ والّتي نظّم فيها سيدي لخضر بن خلوف قصيدة.

4- قصّة فخر الدّين الرّازيّ مع الحمامة وصياغة القصّة شعرا ومطلعها:

جاءت إليك حمامة مشتاقـــة تشكو إليك بقلبٍ صبٍّ واجفِ

من أخبر الورقاء أنّ مكانكم حـــــرمٌ وأنّك ملجأٌ للخائفِ[2]

لقد استعان سيدي لخضر بن خلوف بالقصص الدّينيّ باعتباره مذهبا من مذاهب ضرب الأمثال والعبر؛ فلذلك نجده ينسج لنا قصّة "موسى مع الحمامة والباز" في ثوب شعريّ متميّز، يحتكم لمفردات اللّغة الصّوفيّة ولغة التّداول الاجتماعيّ.

***- هيكل القصيدة:**

لقد ارتضى سيدي لخضر بن خلوف لنفسه منهجا في مطالع قصائده، والمتمثّل في الصّلاة على النّبيّ عليه السّلام، وهذه الصّلاة الّتي انفرد بها الشّاعر تتجلّى في الصّلاة عليه بقدر ما لا يمكن عدّه أو حصره مثل عدد النّفوس، وعدد ما قيل جهرا، وتصويرا في الأرحام وما خصّه خالقه دون الخلق كلّه وهي الشّفاعة. يقول الشّاعر في مقدّمة قصيدة "**صلوا وسلموا**"[3]:

قَدْرْ آنْفُوسْ الْعَالَمْ وَمَا قِيلْ جْهَارْ قَدْرْ مَا صَوَّرْ الرْحِيمْ الــرَّحْمَاني

ولسرد القصّة في قالب شعريّ متميّز، استحضر "سيدي لخضر بن خلوف" سائلا لكتابة هذه القصيدة وهذا ما نجده في التّراث العربيّ، إذ ألّفت ثلّة غير قليلة من علماء العربيّة كتبهم بناء على استحضار سائل سواء كان حقيقيّا أو وهميّا، ومنهم أبو عبيدة في كتابه "مجاز القرآن"، والفرّاء في "معاني القرآن" وغيرهما.

ثمّ انتقل الشّاعر إلى صياغة قصّته إذ بدأ في تصوير الحال الّتي استقرّ موسى عليه السّلام والمتمثّلة في مناجاة الواحد القهّار في جبل الطّور كما ذكرتها المصادر، يقول:

يَتْنَاجَى مْعَ رَبْنَا الوَّاحَدْ القَهَّارْ كَانْ وَاحَدْ النْهَارْ سِيدْنَا مُوسَى

وفي هذا المقام التّعبُّديّ يصوّر لنا سيدي لخضر بن خلوف كيفيّة حضور طرفي الصّراع في ناموس من نواميس الكون؛ المفترس والضّحية (الباز والحمامة)، وبداية الحوار بين موسى عليه السّلام وطائر الباز، يقول سيدي لخضر بن خلوف:

وظّف الشّاعر الحوار حتّى يستبين الصّراع بين المفترس والضّحيّة، إذ الضّحيّة في عُرف المفترس رزق وقوت ساقه الله إليه؛ فيؤكّد على طلبه، ويصوّر الشّاعر هذا المشهد بقوله:

قَالْ لَهْ مُوسَى يَا بَازْ خُذْ الــرَّأْيْ اخْيَار وَاتْرَكْ سْبِــيلْ ذَا الْحْمَامَــة يَا بــَرْنِي

قَالْ لْهَ إِذَا تْرَكْــتْهَا تَضْحَى خَــسْرَا مَكْتُوبِي مَا انْــفَــلْــتَهْ لُو يَــبْعَــدْنِي

ثمّ ينتقل الشّاعر ليصوّر لنا في هذه الأبيات اقتناع موسى عليه السّلام بحجّة الباز، واستسلامه لسُنَّة الافتراس الّتي أودعها الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته:

نُوضِي لَلطِّيرْ يَا كْلُكْ فِي ذَا الأَرْمَة نَقْطَعْ رَزْقَهْ خُفْتْ يَلْحَقْنِي ذَنْبَهْ

يعرّج بنا الشّاعر في هذه الأبيات نحو الحوار المباشر بين المفترس والضحية مبيّنا تفاصيل الافتراس في قوله:

انْشَبَكْ فِيكْ بَالْمْخَالَبْ وُالْمَنْقَارْ نَاكُلْ لَحْمَكْ وُنْكَسَرْ عْظَمَكْ ثَانِي

ثمّ يعود الخطاب إلى موسى عليه السّلام ليذكّر بجزاء الصّبر، ويذكّر الحمامة بمقامها بعد موتها بقوله:

نُوضِيْ لَلطِّيرْ يَا كْلُكْ جَايَعْ عَطْشَانْ لُو كَانْ صْبَرْ يْعَاوْضَهْ رَبِـــي بَاكْثِرْ

يَضْحُو اجْنَاحْتَكْ عْقِيقْ وُعَقْيَـــــانْ وَعْيُونَكْمَنْ يَاقُوتْ النَّفِيسْ وُالْجُوهَر

شقّ الشّاعر حجّة الضّحيّة في شقين؛ الأوّل منهما وقار النّفس وعزّتها عند صاحبها، وتركها لأولادها دون راع بعدها في قوله:

قَالَتْ لَهْ يَا نْبِي النَّفْـــسْ لَهَا وْقَارْ مَا رِينَا مَنْ يْبِيعْ نَفْسَهْ بَالْفَانِي

اوْلِدَاتِي صْغَارْ ايَضْحُوا فِي ضْرَارْ مَنِّي يَتْيَتْمُوا وُلاَ مَـــنْ يْجَرِينِي

أمّا الشّقّ الثّاني فقد تمثّل في مخاصمة الحمامة نبيّ الله موسى عليه السّلام يوم القيامة، ومحاسبته إنْ هو قدّمها إلى مفترسها، وصوّر الشّاعر هذا الموقف بقوله:

رَانِي غَدَا خْصِيمْتَكْ فِي دِيكْ الدَّارْ بِينْ يَدِّي اللهْ تَعْطِينِي دَيْنِي

ثمّ يوجّه الشّاعر الخطاب إلى المفترس ليقدّم حجّته، كما قدّمت الحمامة حجّتها لنبيّ الله عليه السّلام، والمتمثّلة في هلاكه من الجوع، يقول سيدي لخضر بن خلوف:

نْطَقْ الْبَزْ وُقَالْ يَا نَبِيْ اللّهْ رَانِي مَحْتَاجْ غِثْنِي قَبْلْ أَنْ نَعْدَمْ

ثمّ أشار الشّاعر إلى حلّ استرشد إليه نبيّ الله موسى عليه السّلام لكي ينصِف الطّرفين، فيبقى كلّ منهما على قيد الحياة، فأخذ عليه السّلام سكينا وبدأ في تقطيع لحمه حتّى يستطعم الباز، وتنجو الحمامة، ولكنّ الله بقدرته عطّل وظيفة السّكين، كما عطّل النار عن الإحراق مع إبراهيم عليه السّلام، يقول الشّاعر:

اجْبَدْ سكِينَهْ سِيدْنَا مُوسَى وَارْحَاهْ مَنْ بَعْدْ الْخُوفْ عَادْ هَانِي مَنْ رَوْعَهْ
ثْلَاثَة مَرَّاتْ تَغْمَدْ السّيفْ بِإِذْنِ اللهْ ذَاكْ السّيفْ الْحدِيدْ يَحْفَى مَــنْ قَطْعَهْ

ثمّ ختم الشّاعر القصّة ببيتين من الشّعر بيّن من خلالهما السّرّ الكامن من وراء هذه المطاردة، إذ الباز ما هو إلاّ جبريل عليه السّلام، وما الحمامة إلاّ مكايل عليه السّلام، وغايتهما اختبار موسى عليه السّلام:

طَارْ الْوَرْشَانْ جَاء حْدَى الْبَازْ وُسَمَاهْ وُارْمَاهْ عْلَى بْسَاطْ لَحْمَهْ يَقَطْعَهْ
قَــالْ أَنَايَا جَبْــرِيلْ يَا نَبِــيْ اللهْ وُهَذَا مِكَايلْ لِيكْ جِئْنَا نَــشْتَرْعُوا

في نهاية قصيدته يرجو الشّاعر من المصغي لشعره أن يدعو له بالعفو والغفران مصلّيا ومسلّما على خير الأنام، يقول:

ادْعِي لِي اللهْ يَآ مَنْ صْغِيتْ لَلأَشْعَارْ الأَخْضَرْ طَالَبْ الْعَفْــوُ وُالْغُــفْرَانْ
صَلُّوا وَسَلْمُوا عْلَى طَيَــبْ الأَذْكَارْ مُحَمَّدْ صَاحَبْ الشْفَاعَة وَالْمَدَانِي

تحيل هذه القصّة في مرجعيّتها الدّينيّة، كما هي قصص موسى عليه السّلام إلى التّأمّل في حكمة الله سبحانه وتعالى في توجيه الكون وتسييره، إذ وقف موسى عليه السّلام في هذه القصّة بين دفتي إرادة إلهيّة والمتمثّلة في الطّبيعة الحيوانيّة، فلذلك نجد موسى عليه السّلام في قصّة مع الرّجل الصّالح لم يسطع صبرا لتقدير الله سبحانه وتعالى على يد الخضير. فهذه القصّة صاغها سيدي لخضر بن خلوف، ونفخ فيها من روحه الدّينيّة ولغتة الصّوفيّة متكئا على الصّلاة على الرّسول صلى الله عليه وسلّم، فالحمامة في العرف النّبويّ رمز لمساندة محمّد عليه الصّلاة والسّلام وتمويه لقريش.

- **الإحالات:**

1- سورة المائدة، الآية: 31.

2 - ينظر تفسير مفاتيح الغيب، الرّازيّ، ج16، ص: 256.

3 - قصيدة صوّر فيها سيدي لخضر بن خلوف قصّة موسى عليه السّلام مع الحمامة والباز، بخوشة، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، ص: 26.

قائمة المصادر:

- القرآن الكريم.

1 - بخوشة، ديوان سيدي لخضر بن خلوف.

2 - مفاتيح الغيب، الرّازيّ.